جسده ضيف طفولته الضائعة:

صور شخصية تستضيف الطبيعة من جهة الحنين اليها

فاروق يوسف*

■ (اذا رأيت ذراعي خارجة من الثلج، ذلك يعني أني موجود تحت الثلج)، هذا ما يقوله الفنان الامريكي (من أصل فنلندي) آرنو رافائيل منكينين. جسده هو موضوعه الأثير والوحيد منذ عام 1971. كل صوره تحمل عنوانا واحدا لم يتغير الا ببعض الاضافات (بورتريه شخصي). ومع ذلك فلا صورة من صوره تشبه صورة أخرى، لا من جهة ما تطرحه من تساؤلات غامضة وألغاز تزيل عن الجسد غبار الاثارة، فحسب بل وأيضا من جهة بنيتها الشكلية. يؤلف آرنو صورته بخيال العارف بآليات عمل الطبيعة. وهو من خلال ادائه الجسدي انما ينسج على منوال الطبيعة المفارقة التي تصنع نغما مضافا، صحيح أن ذلك النغم لا يشرخ المشهد الذي ينبثق من أعماقه غير أنه يظهر نوعا من العصيان الذي يجعل اتصاله بالاجزاء المجاورة من المشهد نوعا من الانفصال وبالعكس. يقول (أنا اعالج المادة بالطريقة التي تبدو من خلالها كما لو أنها وجدت هكذا منذ زمن بعيد، كما لو أنني أعثر عليها ملقية فيها في الطريق). ومفهوم المادة هنا لا يقتصر على جسد الفنان الذي لم يظهر في أية صورة الا مجزءا (جذع، قدمان، أصابع ناقصة ليد غائبة) بل يشمل ذلك المفهوم برعايته مشهدا لا تخفى وحدته العضوية، حيث لا تفاصيل ناتئة أو لافتة للنظر، من جهة تفردها الجمالي. حتى الاجزاء المقتطعة من جسده، والتي تنقل الينا مزاجه التعبيري (لحظة الاداء والتصوير في الوقت نفسه) سعى الفنان الى أن يحقق من خلالها معنى المشاركة في الانشاء الطبيعي، ذلك لأن آرنو لا يرى عيبا في التوثيق البصري الصريح، طالما أن ذلك الفعل يكون قادرا على التنقيب في اعماق النفس البشرية، مازجا مشاعرها الداخلية الدفينة (خوف وأمل واضطراب وسعادة وشقاء وحنين وانتظار ورغبات لا حصر لها) بالأشكال التي تنتهي اليها، وهي أشكال مستلهمة من الطبيعة التي حرمته هجرة عائلته الى الولايات المتحدة من الانغماس في لذائذها، (ولد في هلسنكي عام 1945 وهاجرت عائلته عام 1951 ولم يزر بلده الاصلي الا عام 1967). صوره تعيده الى أصله الشمالي، تعلي من شأن جيناته الوراثية، حيث تستمد حواسه بهجتها من الامتزاج بالطبيعة الحية. ليس هناك عرض مزدوج، ما تفكر به تراه وما تراه لا يقع بعيدا عما يجري في ذهنك. لا شيء يحدث فجأة، يمكنك أن تغمض عينيك فترى العالم مثلما خبرته مرآة لحلم لم ينته بعد.

***

في صور منكينين هناك بلاغة مزدوجة: ما نراه من الصنيع الفني يحثنا على استخراج معان رمزية، وهي معان تتعلق بموقع الانسان من نسيج الطبيعة، وما لا نراه من ذلك الصنيع يقتصر تأثيره على الفنان وحده، المنتفع الأول من فعل الجمال، فقبل المتلقي يكون الفنان. فمن خلال ضبط ايقاعاته الجسدية تناغما مع ميزان الطبيعة استطاع الفنان أن يسترجع شيئا من طفولته، حيث كان منفاه المبكر نوعا من الاقتلاع بعيدا عن وطن لم يعرفه الا في صفته مزاجا داخليا متمردا يشعره بالمسافة التي تفصله عن المحيط الخارجي الذي صار بمثابة وطن. ولقد شكلت عودته الى فنلندا بعد فراق طويل لحظة اكتشاف لوعيه الشقي، لقد أدرك يومها أن جسده وجد أخيرا الفضاء يتحرك فيه بحرية من غير أن تشكل تلك الحرية نوعا من ارتجال الصخب العام. هناك استخرج صورته الشخصية من عمق الطبيعة بيسر، لقد فتك به حنين غامض، وحين استدرجه ذلك الحنين الى هذه البقعة من الارض، التي يسمونها فنلندا اكتشف ضالته الروحية، ومن يومها لم يكف عن القاء موعظة صوره الشخصية تلك. (طوال ثلاثين سنة وانا مشغول بفكرة واحدة: ان استعمل جسدي كوسيلة للتعبير عن العلاقة بالطبيعة)، يقول آرنو. لذلك فان صوره الفوتوغرافية لا تفصح عن طريقة نادرة في النظر الى الطبيعة، بقدر ما هي تعبير عن الرغبة في العودة مجازا الى البيت، لكن بصيغة يغلب عليها الابتهال والرجاء. والطبيعة بالنسبة لشماليي أوروبا هي دين مضاد لكنه غير مشاغب، دين يكتسب تعاليمه من امتزاج عضوي لا سبيل الى اقتناص مفرداته بين عناصر تجمع ما بينها فكرة الخلق. لقد فجرت عودته تلك في أعماقه نزعة روحية مبهمة، كانت في حقيقتها نوعا من التماس الطريق الى ذلك الدين الذي لا تنكره الاديان السماوية بل غالبا ما تتسلى بمدائحه: الطبيعة وهي تستضيف الجسد البشري.

***

القليل من جسده يكفي لصنع ذلك الايقاع المنغم الذي يريد الذهاب اليه. هناك كفاءة خالدة في التعبير لا يمحوها الزمن. (تماما مثل الصخور والاشجار التي لم تتغير طوال الوقت كذلك اجسادنا لم تتغير كثيرا عما كانت عليه قبل خمسة قرون، الايدي، الاصابع، الاقدام، كل هذه الاشياء الجوهرية ظلت كما هي)، يقول أرنو. بالنسبة للكثيرين يبدو آرنو في هيأة الأحمق في كلامه هذا، لكنه يدرك أكثر منا أن الطبيعة التي عاد اليها لا تقيده، بل تفعل العكس تماما، حين تفتح أمامه خزائن خيالها. ولذلك فانه يغامر مطمئنا حين يضع اجزاء من جسده في خدمة توترها الجمالي. فتكون تلك الاجزاء أشبه بالشطحات الصوفية، بالجمل النيتشوية الغاصة بالدهشة، بخفق الأجنحة على سطح بحيرة ساكنة. يحل جسد أرنو ضيفا على الطبيعة مثلما يفعل زائر معبد منهمك في التفكير بصلاته، فلا يرى من ذلك المعبد الا الفضاء الذي ينقله الى المطلق. وما دام الموضوع متعلقا بصلة الفن بالطبيعة فان هناك خطرا دائما. فالطبيعة وهي مصدر كل جمال محتمل لا بد أن تدعونا الى اليسر، وهو يسر يصدر منه كل كسل جمالي، وهو ما تجنب آرنو الوقوع فيه، حين اختار أن يكون جسده هو القربان الذي تنشأ من حوله الاسطورة. لقد اقترح على الطبيعة أشكالا مغامرة مستلهمة من جسده لكي تظل كما هي في أحلامه منجما لتوتر خلاق.

* شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد

من تصوير آرنو رافائيل منكينين (القدس العربي)

تداعيات

ضفادع العالم العربي وحيتانه

خليل النعيمي*

■ لنفعل كما فعلت اسرائيل
لنتحاسب
اسرائيل نقطة في بحر العالم العربي. لكنها «هوموجين»، او متجانسة. والخضم العربي «هيتيروجين» او لا متجانس. انه ملل ونحل. اثنيات عديدة تسكنه. فيه، ومنه، انطلقت، ديانات حوض المتوسط التوحيدية، كلها: اليهودية، والمسيحية، والاسلام. وهو الذي هوّد العالم، ومسّحه، وأسلمه. وليس ذلك، في حد ذاته، مضرا. لكنه قد يصير كذلك.
ولربما كانت هذه الهوموجينية او التجانسية الاجتماعية والسياسية، ذات البعد العنصري، في اسرائيل هي التي جعلت، بالاضافة الى عناصر واسباب اخرى بالطبع من هذه الدويلة «الميكروسكوبية» اخطر عدو يواجهه العالم العربي منذ قرون بالرغم من كثرة دوله «الماكروسكوبية».
وهي، اسرائيل، الدولة الوحيدة التي مارست وتمارس في العصور الحديثة فلسفة اوروبا الاستعمارية الهمجية العتيقة عند اكتشافها الملعون لما اسمته: «العالم الجديد» والذي كان اقدم بكثير من مكتشفيه اقصد: فلسفة «الافناء والاستيلاء» التي طبقتها في فلسطين ومن حولها.
هذا كله لم يمنعها، لم يمنع اسرائيل، من ان تحاسب نفسها عندما اوقعتها المقاومة اللبنانية الشجاعة في شك من امرها. وخلخلت، بالصمود الذي لا ينكر تماسكها وهزت رسوخها. هذا ما يجب علينا ان نفعله ايضا.
ولكن من منا يستطيع ان يحاسب من؟ وبأي شرعية «يتسلطن» عليه والبحر العربي مليء بالضفادع والحيتان؟ ولم يحدث ان عرف في تاريخه السياسي المعاصر، منذ نشوء دوله العديدة عام 1922 وبقوة الغرب الاستعمارية اصلا، سلطة شرعية (الا نادرا جدا وبأهمية محدودة ولوقت قصير) وتلك هي نقطة الحساب الاولى.
الحلقة الاضعف في العالم العربي هي الاقوى؟
من كان يتصور ذلك؟ من كان يتصور ان لبنان هو الوحيد الذي سيقاوم عنف اسرائيل الأحمق، 33 يوما، ويجبرها على التخاذل وجيوش عدة دول عربية لم تصمد غير ساعات قليلة لا اياما في «الفر المخزي» عام 67؟
لبنان الشعب غير جيوش الانظمة العربية؟ ما يمنينا به العسكريون ليس الا خدعة؟
هل حان الوقت لانتزاع امور البلاد منهم؟
لم لا يكون صمود المقاومة اللبنانية الرائع، اذن، مدخلا لرفع ايدي هؤلاء الجنرالات عن شؤون السياسة والمجتمع؟ ولم لا يتم ذلك بشكل سلمي وعقلاني، بيننا وبينهم؟ (وهو ما يبدو لي الان بسبب حماقتهم وجبننا بعيدا عن التحقق مع الاسف)! ومع ذلك لم يعد لدينا الوقت الكافي ولا الرغبة اللازمة لنتابع مصيرنا البائس: مصير الضحايا المهروسين بين مطرقة اسرائيل الغاشمة، وسندان جنرالاتنا المهزومين باستمرار والذين لا يقبلون اي بديل آخر لجلوسهم فوق رؤوسنا، حتى «التحرير»، حتى تحريرنا، نحن من ربضتهم.
وتلك هي نقطة الحساب الثانية.
ملوك وجنرالات!
تلك هي فئة الحكام الحاليين في العالم العربي. وذلك ليس معزولا عن وجود اسرائيل. لقد اوضحت مقاومة الشعب اللبناني، ان ثمة «شبه اتفاق» مرضيا عنه، غير معلن، لكنه ظاهر فيما يفعل وما لا يقال (وان كان مستورا او مسكوتا عنه) يؤكد صحة الفرضية القائلة ان وجود اسرائيل العدواني (وليس السلمي) هو الذي يمهد الطريق «لحكام الابدية» في العالم العربي. وهو الذي يمكنهم من ان يعيثوا في الناس فسادا طالما ان اهدافهم تلتقي مع اهدافها في «تأخير» التحرير والسلم وهما الشرطان اللازمان لزوالها او لتحولها الى دولة «انسانية» منفتحة على الاجناس والاديان ولزوالهم كآخر طغاة في التاريخ.
لنقل بصراحة اننا صرنا نشك اليوم في انهم «قد» يكونون يتمنون اطالة الامد الاسرائيلي الحالي ويأملون عدوانه المتكرر على «اهلهم» من اجل ان ينعموا بخيرات البلاد بلا مراقبة او عقاب. وهذه هي نقطة الحساب الثالثة. في اسرائيل يتظاهر العشرات من جنود الاحتياط بعد ان خاب املهم في نصر سهل فتهتز السياسة كلها ويكاد رئيس الحكومة ان يطير وسيطير حتما (الا اذا...) وهي علاقة صحية بين قطبي المجتمع: الحكومة والأهالي. وفي بحر العالم العربي الراكد لا تنفع المظاهرات ولا الحشود ولا الاحتجاجات ولا الصحافة ولا آراء المفكرين ولا التململ الشعبي الصامت (فنادرا ما يكون الصراخ ضد). لا! لا شيء يحرك بحر العالم العربي المليء بالضفادع النقاقة والحيتان البلاعة. الضفادع تنق اقصد: تكتب شعرا وتنظر للحياة وتتفلسف ولها كامل الحق في ان تقول ما تريد (مثلما افعل انا الان)، طالما ان الحيتان مطمئنة على مصيرها ولا يمنعها شيء عن الالتهام: التهام الثروة والحرية.
المأساة ان كلا منا رضي بدوره التاريخي واستساغه حتى غدا هذا الدور جزءا من وجوده الخاص وعلامة من علامات تاريخه الشخصي الى ان فجرت المقاومة اللبنانية والفلسطينية اخيرا هذه المعادلة العربية البائسة واذنت بزوالها.
هل ستكون هذه هي نقطة الحساب الاخيرة غدا؟ و«ما اقرب اليوم من غد»، كما يقول «طرفة بن العبد».

* روائي من سورية يقيم في باريس

رحيل السوريالي الودود حسن باقر

عزيز الحاكم*

صديقي سيف الرحبي

هل مات حسن باقر (بوص) حقا ؟
أنا لا أكاد أصدق هذا ...
ذلك أننا قبل أيام فقط (آب/اغسطس 2006) كنا معا في «أصيلة» برفقة التشكيلي الصوفي «خليل غريب» والصديق الرسام «حسن العلوي» نجلس في مزاره الصغير والفسيح جدا بحميمية الاستضافة، نشرب ونتذكر أجمل الأصدقاء: (زاهر الغافري ـ عبد الله الريامي ـ أمجد ناصر ـ قاسم حداد ـ محمد الحارثي ـ أحمد راشد ثان ...)، وحين سألته عنك قال بأنه كان من المفروض أن تجيء الى «أصيلة» لكن طارئا ما حال دون ذلك. لقد كان يتحدث عنك بتبجيل ومودة نادرين ونبرة نوستالجية لم أدرك قرونها الاستشعارية في الحين.
آه، لكم ضحكنا وتبادلنا من طرائف المودة! كان «حسن» حريصا على أن يسمعنا أعذب ما لديه من تقاسيم الفلامنكو وأغاني الجاز والبلوز، وأن يطلعني، لأول مرة منذ أن تعارفنا في منتصف الثمانينيات، على صوره الفوتوغرافية الباذخة التي التقطها في التايلاند والهند والنيبال خلال تجوالاته الدائمة. كان في ذروة الفرح، لا يكاد يرتاح من اعداد وجبة السمك المتبّل بالبهارات الهندية والجبن المخلل بالثوم والزيت حتى يتفرغ لسقينا من كؤوس النبيذ، وبعدها يحكي لنا عن مشاهداته البطوطية ومغامراته الغرائبية، ثم يبحث عن المعزوفات الموسيقية التي لا تليق بسوانا، وهو يردد ويغمز لي بعينه اليمنى:
ـ أنا أعرف ذوق هذا اللعين، انه صعب جدا ولا أريده أن يشمت بي.
وفي غمرة اندفاعه المسرور يقرأ علينا نصوصا شعرية شفيفة سرعان ما يخبئها خوفا من أن أنتشلها منه وأنشرها. كان ملحا على أن يظل مغمورا الى الأبد. ويكتفي بقراءة منشورات أصدقائه: بل انه غالبا ما كان يفاجئني بقراءة نصوص لي لم أطلع على أغلبها منشورا لوجودي خارج المغرب لحظة صدورها، وكان يعرف أدق التفاصيل ويحفظ أبهى ما دبجناه في مهوى التخيل. وكان بحق ذاكرتنا المشتركة، حريصا الى أبعد حد على لملمة تشتتنا الخرافي العجيب: هل تذكر يوم التقينا في مقهى «زريرق» في ذلك الصباح الصيفي الرائق وجلسنا نكنس عقولنا ونتداول في شؤون هذا الكون المغشوش بمنتهى السخرية، وبعد منتصف الليل نزلنا الى مرقص الخيمة، بصحبة القاص الداهية محمود الرحبي والمسرحي عبد الحق الزروالي والكاتب ادريس كثير، وظل «حسن» يرتب شربنا ورقصنا وحماقاتنا بفائق العناية؟

صديقي سيف
لست حزينا فحسب. أنا غاضب الى أقصى حدود الغضب. لا لأنه يرتاح الآن في مراتع الغياب المطلق بعد أن أنجز معظم ما أخذ على عاتقه من مهام مستحيلة، بل لأن هذا الموت الحقير والمفاجئ يفاقم من رغبتنا في استنفاد الحياة بأسرع ما يمكن وبأحلى ما أوتينا من حيل وتفننات. وهذا بالضبط ما استشعرته خلال مجالستي الأخيرة للصديق الودود «حسن»، فقد كنت أبدو بالمقارنة معه مثل شيخ مرهق، وكان يلح على أن نمضي بالليل الى منتهاه وأن ننهي الحياة قبل أن تنهينا..
كان فرحا جدا بشكل لا يدع مجالا للشك في أنه يعشق الحياة على النحو الذي يريحه رغم أنه لم يكن مرتاحا، لكثرة تحركه وعدم استقراره في مكان ما (كان جواب آفاق برية وبحرية بايقاع مغبط). وكان الليل بالنسبة اليه هو الملاذ الحقيقي لكل المشتهيات.
وأعجب ما كان لديه ذاكرته الحديدية التي لا تفرط في أبسط التفاصيل : من مرور الطغمة السوريالية ذات مساء غابر بمشرب «النوفيلتي» ولقاء المسرحي اللطيف «حسن المنيعي» وما تلا ذلك من مكارمه ودعاباته المعهودة والحاحه على أن يقضوا ما تبقى من الليل في ضيافته في مسكنه المفروش بأبهى الذخائر المعرفية، وهبوطنا في منتصف التسعينيات محملين في صدر الليل بألذ ما يطيل الجلسات ونحن نفترع دروب فاس المعتقة في اتجاه «رياض» الصديق «ادريس السراج» ونومة الشاعر «محمد بوجبيري» باسما فوق الأريكة المهترئة مثل آسيوي نسيته عشيقته في احدى المحطات النائية، وسمرنا معا في برج «دار الضمانة» في ضيافة الممثل محمد عادل بصحبة المسرحي المرح محمد بلهيسي في جلسة أبكرنا فيها ضحكا وتندرا حتى حلول الفجر، ولقائه الأخير بالاعلامية الجريئة فاطمة الوكيلي وابنتها، من الشاعر الوديع زاهر الغافري، «يارا» التي كان يعتبر نفسه بما لا يخلو من اعتزاز بأنه عمها الرمزي.

صدقني يا سيف
فأنا في حقيقة هذه التداعيات لا أرثي صديقا كان يراني قبل أن أراه ويسأل عن آخر أخبارنا وأحوال ذريتنا. أنا أرثيني وأرثي مداهمات الحزن الغبي، غير مصدق عجز عزائمنا الأسطورية على تحدي اكراهات العيش البيولوجية: اذ ما معنى أن يعيش الأغبياء و«المشاؤون» والحساد أطول مما يستحقون ونحرم نحن من أعز الجلساء؟ ألم أكن محقا حين أعلنت في منتصف الليل بأن «يوكيو ميشيما» قد كان على صواب حين عجل بنهايته ووقع موته بيده ضدا على وهم الارتباط بهذا الوجود الأجوف؟ بلى فقد انتصب « بوص= المعلم» واقفا وزكى كلامي في حضرة ندماء لم يقرؤوا كتابات «ميشيما» ولم يشاهدوا فيلم «بول شريدر» الرائع حول سيرة هذا الروائي الياباني الذي حول أتفه التفاصيل اليومية الى حقائق مقدسة.

قليلون هم أولئك الذين يختزلون المحبة في الحاح صادق على اطالة اللقاء، لأن معظمنا أصبح اليوم ـ لاعتبارات لا مبرر لاجترارها ـ يأنف من أقرب الناس اليه، الا هو فقد كان تعلقه الرومانسي بالمعارف والأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء والجيران (كان محبوبا لدى ساكنة الدرب الأصيلي الذي يقطنه بشكل مدهش، كان واحدا منهم) مثار غبطة واطمئنان. وهذا ما جعله محبوبا لدينا ولدى أقاربنا (لم أخبر بعد ابني «غسان» بوفاته حتى لا أنغص عليه متعة السفر).

صديقي حسن،
يا أيها السوريالي الودود، عم خلودا في مستراحك الأخير وتخلص في نهاية ترحالاتك السرمدية من واجب السهر على ما ينعش جلساتنا ويساعدنا على تحمل مشاق الوجود بأريحية المنذورين للرحيل قبل الأوان.

* كاتب من المغرب

«العلامة» بنسالم حميش في الاسبانية

الرباط ـ «القدس العربي»:

صدرت الترجمة الاسبانية لرواية «العلامة» للكاتب والروائي المغربي بنسالم حميش، التي تستعرض العشرين سنة الأخيرة من حياة ابن خلدون، ضمن منشورات مؤسسة خوسي مانويل لارا بإشبيلية.
وأنجز الترجمة الاسبانية فريدريكو أربوس، أستاذ بجامعة كومبليتينسي بمدريد، الذي سبق له أن عمل على أعمال الروائي حميش، إذ ترجم روايته التاريخية «مجنون الحكم» سنة 1996.
وتتزامن ترجمة رواية «العلامة» إلى الاسبانية مع تخليد الذكرى 600 لوفاة ابن خلدون هذه السنة، الذي تشرف عليه مؤسسة «الميراث الأندلسي» راعية هذا العمل الى جانب عدة تظاهرات.
وكتب المترجم أن «العلامة» عمل روائي يستعرض حياة مؤرخ وسوسيولوجي كبير، كما أنه يجسد بشكل تام «البناء السردي وأسلوب الأدب الروائي التاريخي» الذي يميز بنسالم حميش.
ويحكي هذا العمل الروائي، الذي يتطرق إلى حياة ابن خلدون باعتباره عالما وأحد رجالات زمانه، معاناة وإحباطات وكذا صداقات هذا المؤرخ العربي.
وكان حميش قد حصل بروايته هاته على جائزة نجيب محفوظ سنة 2002 وعلى جائزة الأطلس الكبير سنة 2000.
وتشكل الترجمة الإسبانية لهذا العمل الروائي أفضل احتفاء بالذكرى الـ600 لوفاة مؤرخ كبير كان شاهدا متميزا على فترة شهدت توترا كبيرا، وعرفت بداية انهيار الحضارة العربية الاسلامية.
كما أن هذه الرواية، تجسد دعوة للقارئ من أجل الوقوف على أقوى اللحظات التي عرفتها تلك الفترة المضطربة خلال القرن الرابع عشر الميلادي، بتوتراتها الاجتماعية وصراعاتها المسلحة وكذا مشاريع الهيمنة والمعاهدات السياسية والتجارية التي طبعت تلك الفترة.
وصدرت الترجمة الإسبانية لرواية «العلامة» (318 صفحة) بعنوان فرعي «ذاكرة فيلسوف عاشق».